



في رحاب التوراة

دراسات وجوارات روحانية مُعمقة في النصوص التوراتية الأسبوعية مع
الحاخام جوناثان ساكس

Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY

نتقدم إلى عائلة شميل بجزيل الشكر والعرفان على دعمهم السخي لكتاب "في رحاب التوراة" (Covenant and Conversation)، ونهدي هذا الكتاب لذكرى الحاخام الراحل هاري (حاييم) شميل طيب الله ذكره. "لقد غشقتُ تعاليم التوراة التي قدّمها الحاخام حاييم شميل منذ اللحظة الأولى لاطلاعي عليها، خاصة وأنه عمل جاهداً على ألا تتطرق تعاليمه للحقائق السطحية فقط، بل تعمق في غلاتها بالحقائق الموجودة وراءها. ورفقة زوجته أنا، تلك المرأة الاستثنائية ذات الستين ربيعاً، فقد أسس الحاخام حاييم حياةً مكرسةً لحُب العائلة والمجتمع والتوراة، فكانا زوجين مُميزين ومثالاً يُعتدّ به بكل ما تحمله الكلمة من معنى، الأمر الذي كان له عميق الأثر عليّ." - الحاخام جوناثان ساكس

With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

"I have loved the Torah of R' Chaim Schimmel ever since I first encountered it. It strives to be not just about truth on the surface but also its connection to a deeper truth beneath. Together with Anna, his remarkable wife of 60 years, they built a life dedicated to love of family, community, and Torah. An extraordinary couple who have moved me beyond measure by the example of their lives." — Rabbi Sacks

"تساف" هو النصّ الأسبوعي الثاني من كتاب "فَيَقْرَأ" (أي سفر اللاويين)، وهذا النصّ الأسبوعي يبدأ من الآية الأولى في المقطع السادس، وينتهي بالآية السادسة والثلاثين من المقطع الثامن.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

المعنى الحقيقي للتّضحية

توجد عدّة أسباب تجعل مسألة التّضحية بالحيوانات واحدةً من أصعب وأعقد المسائل التي تحدّثت عنها التوراة، والسبب الأول يكمن في أن اليهود والديانة اليهودية قد قدّر لهم البقاء والاستمرار لأكثر من ألفي عام دون تقديم الأضاحي والقربان (أي منذ الخراب الثاني للهيكل). والسبب الثاني هو أن جميع أنبياء اليهود كانوا يَنقِدون مسألة التّضحية (على الأقل من ناحية نظرية) وعلى رأسهم النبي يرمياهو/إرمياء الذي عبّر عن ذلك في عديد من المواقف، أهمها الموقف الموجود في نصّ "الهفتراه" المأخوذ من سفر إرمياء والمُرافق لهذا النصّ الأسبوعي الذي يحمل عنوان "تساف" (الهفتراه هي نصوص مُكتملة للنصوص التوراتية الأسبوعية تؤخّذ من الكتاب اليهودي المقدّس التناخ)¹. ولم يسع أي نبي من أنبياء بني إسرائيل إلى إنهاء ظاهرة التّضحية والقربان، لكنهم في الوقت نفسه كانوا شديدي الانتقاد والتزمّت مع أولئك الذين يُقدّمون القربان لله عزّ وجلّ بينما يقومون بتصرفات مُسيئة مثل استغلال البشر وغيرها.

بالتالي ما كان يُورثُ الأنبياء ويشغل بالهم، بل ويُغضب الله عزّ وجلّ الذي تُقدّم هذه الأضاحي والقربان باسمه، هو الخشية من أن يسود اعتقادٌ بين البشر بأن هذه القربان التي تُقدّم إلى الله هي بمثابة "رِشوة"! بمعنى أن يُطلّ البشر بأنهم كلما زادوا من سخائهم وكرمهم في تقديم الأضاحي والقربان لله، كلما تغاضى عن جرائمهم وخطاياهم وسيئاتهم، وهذه فكرة تتناقض تماماً مع المعتقدات اليهودية. لقد كان الحكم الملكي وظاهرة تقديم القربان من ضمن أقلّ الأمور التي تُميّز اليهودية في تلك الأزمنة لأنّ كل مُعتقِد قديم في تلك الحقبة كان له مذبّح خاصّ به تُقدّم من خلاله القربان والأضاحي.

وهنا يبرزُ النجاح الاستثنائي لكبار حاخامات اليهود الذين تمكّنوا بمنتهى البساطة والسلاسة من إيجاد بدائل لتقديم الأضاحي والقربان، خاصة هذه البدائل الثلاثة: الصلوات، والدراسة، وتقديم "التسداقاه" (الصّدقة حسب المفهوم اليهودي لا تعني التصدّق بالمال فقط، بل يُقصدُ بها تحقيق العدالة الاجتماعية للفقراء والمحتاجين عموماً). وبالنسبة للصلوات اليهودية، هنالك ثلاث صلواتٍ مُحدّدة حلّت محلّ الأضاحي والقربان التي تُقدّم لله عزّ وجلّ بشكل دوري: صلاة الشّحاريت (بمعنى الصلاة التي تُؤدّى وقت الصباح) وصلاة المنحاه (الصلاة التي تُؤدّى خلال فترة الظهر أو بعد الظهر) وصلاة الموساف (وهي صلاة إضافية تُضاف إلى الصلوات الاعتيادية التي يؤديها اليهود في يوم السبت والأعياد الدينية وبداية كل شهر). وبالنسبة للبديل الثاني وهو الدراسة، فإنّ من يدرسُ قوانين وتشريعات تقديم الأضاحي والقربان لله عزّ وجلّ فهو كمن يُقدّمها. أما البديل الأخير وهو تقديم الصّدقات، فيتعيّن أن المرء حين يتبرّع لأعمال الخير - وهو عملٌ يُعتبر بمثابة تضحية مالية - فإنه يعترف ضمناً بأن جميع ممتلكاته هي مُلكٌ لله عزّ وجلّ.

وبالرغم من أننا نُصَلِّي لله ونتضرعُ إليه في صلواتنا اليومية كي يُعيد بناء الهيكل اليهودي المُقدَّس ونُعيد تقديم القرابين، إلا أن مبدأ تقديم الأضاحي والقرابين لا يزالُ صعبَ الفهم إلى حدٍ ما. وفي هذا السياق، ظهرت الكثير من النظريات لعلماء النفس وعلماء الأثنوبولوجي (علم أصل الإنسان) والباحثين والدارسين في التناخ*، إلا أن أغلب تلك النظريات مبنية على أساس ضعيفٍ يفترضُ بأنَّ مبدأ تقديم الأضاحي والقرابين هو المبدأ نفسه في كافة الثقافات الإنسانية، لهذا تظلَّ جميع تلك الأبحاث التي قامت على هذا الأساس ضعيفةً وركيكة للغاية، إذ يتوجَّب على الباحث الذي يدرُس سلوكاً مُعيّناً أن يضعه ضمن سياق الثقافة التي يُمارس فيها هذا السلوك، لا بمعزل عنها.

لكن الأسئلة التي تطرُح نفسها هنا: ما هو معنى تقديم الأضاحي والقرابين من وجهة نظر مُعتقدٍ ديني يعتبرُ الله عز وجلَّ بأنه الخالقُ والمالكُ لكل شيء؟ وما هي أهميّة تقديم الأضاحي والقرابين بالنسبة للديانة اليهودية؟ ولماذا ظلَّت موجودة حتى يومنا هذا؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة بسيطة للغاية على الرغم من أنها لا تتطرق للتفاصيل المتعلقة بكل شكل من أشكال القرابين: وهي أننا نُحِبُّ مَنْ نَقُومُ بالتضحية من أجله. ولهذا السبب تحديداً، عندما كان بنو إسرائيل مُزارعين وفلاحين ورعاة أغنام، فقد كانوا يُعبّرون عن حُبِّهم لله عز وجلَّ عبر تقديمهم جزءاً من رزقهم قُرباناً له، فكانوا يَجُودون بباكورة محاصيلهم الزراعية والحبوب والمواشي والأغنام لهذه الغاية. إن المحبّة تعني الشُّكر، ومحبَّتكَ تعني البذل والعطاء تجاه مَنْ نُحِبُّ²، لهذا فإن التضحية هي بمثابة تصميم استعراضي راقصٍ لترنيمة المحبّة.

وهذا بطبيعة الحال ينطبقُ على الكثير من جوانب حياتنا، فالزّوجان اللذان يعيشان حياة سعيدةً هانئةً يُضحّي كل منهما من أجل الآخر طوال الوقت، والآباءُ يُقدّمون تضحياتٍ جسيمة من أجل أبنائهم، ومَنْ يُلبّون نداء الواجب لعلاج إنسانٍ مريضٍ أو لمُساعدة شخصٍ فقيرٍ، أو رُبما لمُحاربة الظلم وإحقاق العدل وإنصاف المُستضعفين، فجميع هؤلاء يُضحون بوظائف وأعمال تعود عليهم بالدخل الوفير امتثالاً لمبادئهم التي يحملونها. وخلال الفترة التي بزغت فيها فكرة القومية صارت الشعوب تُضحّي من أجل أوطانها، وفي المُجتمعات القويّة المُتماسكة يُقدّم الأفراد تضحيات جسيمة من أجل مَنْ هُم بحاجة إلى العون والمساعدة. بالتالي فإن التضحية هي كالمادة اللاصقة في العلاقات الاجتماعية، لأنها بمثابة الصّلة التي تربطُ كل إنسانٍ بالآخر. ولهذا السبب تحديداً نجدُ أن تقديم الأضاحي والقرابين كان أمراً في غاية الأهمية في عهد التناخ - بالطبع لم يكن تقديم الأضاحي والقرابين بنفس الدرجة أو الطريقة التي يتم تقديمها في مُعتقدات أخرى في تلك الحقبة - لأن المحبّة هي بمثابة القلب النابض في الديانة اليهودية، وهذا ما تؤكّد عليه التوراة في الآية الخامسة من المقطع السادس من سفر التثنية: "أَحِبَّ اللهُ إلهَكَ من كل قلبِكَ، وبكلِّ وُجْدانِكَ وبكلِّ ما أُوتيت من قوّة". بالتالي كان دافع اليهود من وراء تقديم القرابين هو محبة الله عز وجلَّ، في حين كان دافع الآخرين هو الخوف من آلهتهم.

كما أننا نرى عمق الارتباط بين التضحية والمحبّة في اللغة العبرية نفسها، وذلك من خلال الكلمة العبرية المُستخدمة لتقديم الأضاحي والقرابين "قُربان" والتي جاءت من الفعل "لِهَكَرِف"، هذا الفعل الذي يعني اقترَب أو قَرَّب في اللغة العبرية. كما أن لفظ الجلالة الذي يصفُ الله عادةً عندما يرتبطُ الموضوع بتقديم الأضاحي والقرابين هو الاسم الصريحُ لله عز وجلَّ (وهو بالمناسبة لفظٌ لا ينطق به اليهودُ من باب التوقير والإجلال للذات الإلهية في اليهودية)، وهو لفظُ الجلالة الذي يُستخدمُ في التوراة عندما يتعلّق الأمر بمحبّة الله عز وجلَّ ورحمته وعطفه، فلا تَرى اللفظة الأخرى للجلالة "إلوهيم" لأنها تظهرُ عندما يتعلّق الأمر بعدالة الله وببعده أيضاً. كما أن لفظ الجلالة "إلوهيم" ظهر خمس مراتٍ فقط في سفر اللاويين بأكمله، ودائماً ما كان يُظهرُ في سياق الحديث عن أقوام وأممٍ أخرى، في حين أن لفظ الجلالة ظهر 209 مرّات. ومثلما رأينا في النصّ الأسبوعي السابق، فإن عنوان النصّ نفسه "فَيَقْرَأ" يعني النداء بكلِّ محبة، وأينما توجدُ المحبّة يجب أن تكونَ هناك تضحية.

* ملاحظة توضيحية من المترجم: التناخ هي كلمة تختصرُ الحروف الثلاثة الأولى من كلمات "توراة، نفيّيم، كتوفيم" (أي التوراة والأنبياء والكتابات)، ويُقصد بكلمة تناخ الكتاب اليهودي المقدس الذي يضم أسفار التوراة الخمسة (سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية)، بالإضافة إلى أسفار الأنبياء (وهي ثمانية أسفار: سفر يوشع، وسفر القضاة وسفر صموئيل الأول والثاني وسفر الملوك الأول والثاني وسفر إشعيا وسفر إرميا وسفر حزقيال، وسفر اثني عشر الأنبياء الاثني عشر الأواخر. ويُضاف لها أسفارُ الكتابات، والتي تضمّ الهاغوغراف، أي كُتُب السيرة الخاصة بالكهنة وكبار الحاخامات والشخصيات العظيمة في الديانة اليهودية، والتي تضمّ أحد عشر كتاباً، وهي سفر المزامير، وسفر الأمثال، وسفر أيوب، وسفر روث (راعوث)، وسفر نشيد الإنشاد، وسفر الجامعة، وسفر مرثي إرميا، وسفر أسستير، وسفر دانيال، وسفر عزرا ونحميا، والجزء الأخير من التناخ يضم أسفار تدوين التاريخ. بالتالي يضمّ التناخ بين ثناياه أربعة وعشرين سفرًا (كتاباً).

وعندما نُدرِكُ حقيقةَ ارتباطِ المحبّةِ بالتضحية، فإننا سنتمكّن من إدراك مدى ارتباط حياتنا في القرن الحادي والعشرين بمفهوم التضحية، فالكثيرُ من المبادئ والأفكار في العصر الحديث مثل فكرة الدولة الديمقراطية الليبرالية وفكرة الاقتصاد المبني على السوق الحرّ، هي جميعها أفكارٌ ومبادئٌ مبنيةٌ على أساس نظرية الاختيار العقلاني (نموذج الفاعل العقلاني) التي تفترض أن الإنسان يقوم بكل ما بوسعه من أجل تحقيق أقصى قدرٍ من المنفعة الذاتية. وفي هذا السياق يوضح الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز من خلال آرائه في مسألة العقد الاجتماعي، بأن تنازل الفرد عن قدر من حقوقه لصالح سلطة مركزية معينة من شأنه أن يساهم في سيادة القانون وتحقيق المصلحة العامة وحماية المجتمع. كما ويوضّح عالم الاقتصاد الإسكتلندي آدم سميث بأنه في حال كان كل فردٍ يسعى للحصول على أقصى قدر من المنفعة في مبدأ اقتصاد السوق، فإن المحصلة النهائية تتمثل في زيادة ونمو الثروات العامة.

أضيف إلى هذا كله أن الكثير من أفكار ومبادئ الاقتصاد المعاصر والسياسة الحديثة قد بُنيت على أساس البحث العقلاني عن المنافع الذاتية. ولا يوجد ما هو سيءٌ في هذه الأفكار المعاصرة التي كانت دافعاً وراء العديد من الأمور الجيدة حينها، فكانت على سبيل المثال دافعاً لإحلال السلام في أوروبا بعد أن شهدت قروناً من الحروب والصراعات المضنية، كما ساهمت الديمقراطيات المعاصرة وأفكار الاقتصاد السوقي الحديثة مساهمةً كبيرة في استغلال الطموحات الذاتية والفردية لمحاربة الطموحات الهدامة التي أدت بنهاية المطاف إلى ظهور العنف³. كما أنّ حقيقة ارتكاز المبادئ السياسية والاقتصادية على المصالح الذاتية والمنافع الشخصية لا ينفي حقيقة أن المجتمعات الصغيرة والتجمعات الإنسانية المحدودة قد ظلّت باقية على قيد الحياة نتيجة ما تحلّت به من إثارة وتضحية، لهذا كان نظاماً جيداً جداً ولم يكن بتلك الدرجة من السوء.

لكن وفي وقتنا الحالي، أي بعد مرور عدة قرونٍ على عهد الديمقراطيات المعاصرة وأفكار الاقتصاد السوقي الحرّ، فقد أصبحت فكرة ارتباط التضحية بالمحبة تتضاءل شيئاً فشيئاً من مناحي حياتنا المختلفة، حيث نرى ذلك جلياً في العلاقات الاجتماعية على وجه التحديد. ولو أخذنا العالم الغربيّ على سبيل المثال لوجدنا أن عدد الأشخاص المقبلين على الزواج يتضاءل تدريجياً، وحتى أولئك الذين يُقدّمون على الزواج فإن نصفهم تقريباً ينتهي بهم المطاف بالطلاق. كما أصبحت المجتمعات البشرية الأصيلة في أوروبا تندثر شيئاً فشيئاً نتيجة لهذا السبب، فحتى يُحافظ مجتمع معينٌ على تركيبته السكانية الأصيلة فيجب أن يكون معدل الولادة فيه 2.1 طفل لكل أنثى، في حين أن معدل الولادة في أوروبا عام 2015م كان 1.55 لكل أنثى، والمعدل كان أقل من ذلك في إسبانيا ووصل إلى 1.27 طفل لكل أنثى، في حين أن ألمانيا سجّلت أقلّ معدل ولادة على مستوى العالم⁴. والسبب الوحيد الذي يجعل الحالة الديمغرافية في أوروبا مستقرة إلى حدٍ ما هو معدلات الهجرة المرتفعة.

بالتالي، حين ينعدم مفهوم التضحية من المجتمع فإن استقرار العلاقات الزوجية سوف يتزعزع عاجلاً أم آجلاً، الأمر الذي سيؤدي إلى شيخوخة ذلك المجتمع ومن ثمّ فناهيه. وفي هذا السياق تحدّث الحاخام الراحل اللورد عمانويل جاكوبوفيتش الذي شغل منصب كبير حاخامات اليهود في المملكة المتحدة قبل أن أتولاه أنا، قائلاً: يذكّر لنا كتاب التلمود* بأنه حين يُطلق الرجلُ زوجته الأولى فإن "المذبح يذرفُ دمعاً على ذلك" (باب جيتين 90-ب)، والسؤال المطروح هنا: ما هي العلاقة بين المذبح والزواج؟ يوضّح لنا الحاخام عمانويل قائلاً: كلاهما مرتبط بالتضحية، فالزواج يفشل حين لا يُضحّي الزوجان من أجل بعضهما البعض.

* ملاحظة توضيحية من المترجم: التلمود (بالعبرية: תלמוד) هو النص المركزي لليهودية الحاخامية والمصدر الأول للشريعة الدينية اليهودية (الهالاخاه) واللاهوت اليهودي. يعود أصل كلمة تلمود إلى الجذر العبري (ل-م-د)، بمعنى تعلم ودرّس. يحتوي التلمود على التشريعات والروايات والحكايات الرمزية والأمثال والصلوات والقواعد الأخلاقية، إضافة إلى نقاشات فلسفية ودينية حول الكتاب اليهودي المقدس الذي يضم كلا من النص المكتوب وهو التناخ، والروايات الشفهية الموجودة في المشناه والجماراه (الجماراه تضمّ النقاشات الحاخامية حول المشناه). يتكون التلمود من سبعة وثلاثين كتاباً. وتتكوّن المشناه من ثلاثة وستين كتاباً تنقسم بدورها إلى ستة أجزاء تسمى "شداريم" باللغة العبرية. هناك نسختان من التلمود: البابلي واليروشلميّ (أي تلمود أرض إسرائيل)، حيث يوثّق التلمود البابلي نقاشات الحاخامات الذين عاشوا في أرض بابل، واليروشلميّ يوثّق نقاشات الحاخامات الذين عاشوا في أرض إسرائيل، إلا أن التلمود البابلي هو الأكثر شيوعاً واستخداماً.

لقد ظلّت العقيدة اليهودية باقيةً على قيد الحياة بالرغم من التضحيات الجسيمة التي قدّمها اليهود عبر مَرّ التاريخ، وفي هذا السياق يُعبّر الشاعر اليهودي يهوذا اللاوي (يهودَه هاليثي) عن ذهوله الشديد من حقيقة بقاء اليهود وصمودهم في وجه كافة الظروف العصبية التي عَصَفَتْ بهم، في حين كان باستطاعتهم أن يوقروا على أنفسهم هذا العناء وأن يستمتعوا بحياة هانئة رغيدة لو أنهم "نطقوا كلمة خفيفة جداً على اللسان" باعتناقهم ديانات أخرى⁵. والعكس صحيح أيضاً في هذه الحالة، إذ يُمكننا القول أنّ واحداً من أسباب بقاء العقيدة اليهودية واستمرارها هو تلك التضحيات الجسيمة التي قدّمها اليهود، فعندما يُضحّي الإنسان في سبيل مُثله وقيمه ومبادئه فإنها تظلّ باقيةً، والتضحية هي تعبير عميق عن العشق والمحبة.

في الوقت نفسه، ليست جميع التضحيات التي يُقدّمها البشر مُقدّسة، ففي يومنا هذا نجد الانتحاريين يُدنسون اسم الله عز وجل بل ويدنسون قداسة التضحية عندما يُفجّرون أجسادهم ويضحون بحياتهم وحيات ضحايا تلك العمليات الانتحارية⁶. بالتالي فإن فكرة تقديم الأضاحي والقرابين التي تنصّ عليها التوراة قد تكون سبباً يمنع البشر من تقديم غيرهم من البشر كقرابين وأضاحي خلال الصراعات والحروب العنيفة. كما أن مبدأ التضحية كان ولا زال موجوداً في الديانة اليهودية لأن التضحية هي بمثابة الهدية التي تُقدّمها من أعماق قلوبنا لأولئك الذين نُحبّهم.

1. تقول الآية الثانية والعشرون من المقطع السابع من سفر إرميا: "لأنّي لم أكلّم آبائكم ولم أوصيهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة ذبيحة أو محرقة"، وهي آية استثنائية جداً علق عليها كل من الحاخام راشي والحاخام ديفيد قمخي (المعروف باسم راداك) بالإضافة إلى الحاخام موسى بن ميمون في كتابه "دلالة الحائرين" في المجلد الثالث ص 32.
2. الفعل أحب باللغة العبرية جاء من الجذر (أ.ه.ف)، وهو جذر له علاقة بالجذر (ه.ف.ه) والجذر (ب.ه.ف) القريب من الفعل (وهب) في اللغة العربية، وجميعها جذور تحمل في طياتها معنى الهبة والعطاء.
3. النص الأصلي موجود تحت هذا العنوان:
4. مجلة ذا أوبزيرفر بتاريخ 2015/8/15 *The Observer* - A. O. Hirschman, *The Passions and the Interests* (Princeton University Press, 1977)
5. يهوذا اللاوي (يهودا هاليثي)، الخُزاري 4:23
6. انظر كتاب الحاخام جوناثان ساكس الذي يحمل عنوان "ليس باسم الله: مواجهة العنف الديني" (New York: Schocken Books, 2017)



حَوْلَ مَائِدَةِ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ: أَسْئَلَةٌ لِلتَّأْمُلِ

- 1- من أو ما الذي تضحي لأجله في حياتك؟
- 2- كيف يبرهن ذلك عن مدى حبك لهم؟
- 3- وبما أننا لم نعد نقدم الأضحيات في أي من عبادتنا، كيف سيمكنك إذاً أن تقوم بالتضحية لتبدي حبك تجاه الله عز وجل؟

• These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at <https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/tzav/understanding-sacrifice/>.

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*



Facebook Twitter LinkedIn YouTube | RABBISACKS.ORG